وإياهم نَعْتمد المنهجَ المادي الديالكتيكي في التفكير، ولا ينضبط فكرُنا لتوجيهٍ ما خارجنا، ونفكّر بحريّة، ولكن لدينا ثوابتنا الوطنية والقومية التي هي أيضًا ثوابتُ إنسانيةٌ وكونيةٌ في جوهرها.

قُلتَ يومًا في إحدى الصحف: «التجربة أقنعتْني بأنّ المبادئ والأفكار أوهامٌ وسرابٌ، وإنّ الكتابة التي أردتُها نورًا ضد الظلام كانت ثغرةً لإلحاق الأذى بي... لا أحد يقرأنا إلاّ الرقيب.» هل مازلتَ على رأيك؟ وهل كنت تنتظر أن تُحْمَلَ على الأكتاف لكونك كاتبًا؟ تاريخ الكاتب والكتابة يقول إنّ مصيرَ مُرْتَكِبِ الحرفِ الحقِّ هو السجنُ أو المشنقةُ أو المقصلة.

قُلت ذلك الكلامَ في تونس التي قَدِمْتُ إليها مهزومًا أمام جيش شارون الذي يَطْحن الآنَ أرواحَنا، ونحن نحاول التكيُّفَ والتأقلمَ بكياسةٍ وتسامح ـ هما في حالتنا إذعانٌ وضربٌ من المازوشية مع هذا العصر الصهيوني. تحت وطأةِ الشعورِ بالهزيمة الجمعية، وبأنّني كفرد خُذِلْتُ وخُدِعْتُ، خصوصًا حين يَخُون الفكرةَ / الوَهمَ ذاك الذي أقنعني بها، يَصْدر عنّي ردُّ فعلٍ كالكلام الذي سُقْتَه في سؤالك. لكنْ ما إنْ يَلُوح أمامي سرابُ أملٍ حتى يلتهبَ جَمْرُ الأحلام التي في داخلي ويضيءَ المبادئَ التي أرفعُ رايتَها ثانيةً بحماسة الفتوّة. كم من مرّةٍ هجوتُ أمّتي ووصفتُها بـ «الأَمَةِ» [العبدة]، لكنْ ما إنْ تئنُّ حتى أتلوّى ألمًا، وأضطرمَ غضبًا، وأستلَّ قلمي من جرحي المفتوح، وأنافحَ عن حقّها في الحياة والوجود.

يؤلمني أنْ أكتشف أنّنا لا نُقْرأ إلاّ صُدفةً، وكمواقفَ في لحظات تاريخية لا كمُبْدعين!

لستُ نادمًا، ولا أشكو أن أشير هنا ـ كما أشار شعري ـ إلى أنّني دَفَعْتُ وأَدفعُ ثمنَ كلّ حرفٍ أخطّه، ولا أنتظر أن أُحمَلَ على أكتافٍ ارتَضَتْ أن تَحْمل إلى أوطانها الغزاةَ والمحتلّين. وبالتأكيد لا أكتب كي أصلَ إلى السجن أو المقصلة، بل كي أكون أكثرَ حريّةً وبهجةً وامتلاءً بالحياة. لكنْ أن أَكتشفَ أنّنا لا نُقرأ إلاّ صُدْفةً، وأنّنا نُقرأ كمواقف في لحظاتٍ تاريخيةٍ لا كمبدعين، أي يُقرأ سلوكُنا ولا يُقرأ نصُّنا الإبداعي، فهذا بالتأكيد يؤلمني...

أمّا الذي يقرأُنا، أنا وصديقنا سليم دولة مثلاً، ويؤوِّلُ كلَّ حرفٍ نخطّه في لحظة الإبداع الحرّة، فهو الرقيبُ الذي يسعى إلى الإطباق على رقابنا! غير أنّ ما نرنو إليه هو أن نُقرأ من عامّة الناس، وأن نَلْمحَ في عيونهم ضوءَ حروفنا تُشْعِلُ العقولَ والضمائر.

لماذا سَكَتَت الساحةُ الشعريةُ العربية ولم تعُدْ بذلك التأجّج الذي كانت عليه في السبعينيات مثلاً؟ هل أفلستْ تلك المشاريعُ، أم نحن نعاني اليوم أزمةَ شعراء أصلاً؟

إنّ المجتمع الاستهلاكي المعمَّم يُعمِّم قيمَه ورؤيتَه الواحدةَ إلى الإبداع. وسائلُ الاتصال في طفرة غير مسبوقة، وتُملأُ مساحاتُها بالرداءة الثقافية، بعيدًا عن الكِتاب والقصيدة. كما أَخَذَتْ متطلباتُ العيش شعراءَ كثيرين، حتى استنفدوا رصيدهم وصاروا يكرِّرون أنفسَهم حتى الاهتراء. وفي خضمّ هذا الارتباك تنطَّعَ إلى «الكتابة،» التي تُزْعَمُ أنّها شعرٌ، صحفيون من الدرجة الثالثة، راحوا يقدّمون أنفسَهم «شعراءَ جماهيريين.» ولئن تبادَلَ الشعراءُ المشْرفون على المنابر الإعلامية الثقافية الخدماتِ في ما بينهم، فإنّ صحفيين استسهلوا الأمرَ ووَظّفوا وجودَهم على رأسِ هذا المنبرِ الثقافي أو ذاك لتسويق أنفسهم شعراءَ مزعومين أيضًا.

كلُّ مظاهر الانحطاط هذه تجعل الشعرَ الحقيقي يتراجع إلى عزلته ويترفّع عن الزجّ بنفسه في هذا الزّحام المتطفّل على الإبداع عمومًا وعلى الشعر خصوصًا. غير أنّي أعتقد أنّ المواهب الشعرية كامنةٌ وتنتظر أن يَبْلغ مدُّ الرّداءة أوجَهُ كي ترتفعَ هذه الفقاعاتُ جملةً وتفصيلاً. فالمخطوطات الشعرية المهمّةُ تكتظّ بها الأدراجُ وربّما الوجداناتُ، وقد تُشعلُ شراراتُ الشعر وجمارُه الحرائقَ في هذا الخراب لتُضيءَ الطريقَ الصحيح نحو المستقبل.

تونس

في العدد القادم:

■ **آخر حوار مع المفكّر الباكستاني التقدُّمي طارق علي (أجراه: دايفيد بَرْسميان، ترجمة: سماح إدريس).**